على مضجع الآمال ..!!

للأســـتاذ محمد العلائي

« أستاذنا الجليل عميد الرسالة :

... وتلك قصيدة ثالثة أملتها مضجعة الأمل المحموم على سرير المحنة وأنا في هذه القرية المصرية التي نزلتها زائراً فأمسكتني عليها سجيناً . وإني نزلتها مودعاً فأدركني بها ما صنعت « وزارة العارف » في عهدها السابق بقضيتي حين أوفدت بعثتي إلى « لندن » وحين استباح الهوى الغاشم حرمة الضعف النبيل وظل الشجى يعبث الشجى حتى انكمشت مشاعري وتراجعت عن هذا العالم الصاخب وتجمعت في هذا البلد الصغير الذي استقبلت عليه مأساتي ودرجت على ربوعه أحلامي ... وظل الشجى يعبث الشجى حتى صدق الله وعده وأراد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة فزهق الباطل وجاء أستاذنا « السنهوري » إلى وزارة العارف ... واستأنفت قضيتي من جديد ما بين عدالة الوزير الكريم وحصافة المستشار الجليل . وأستاذنا « اسماعيل القباني » مستشار له كرامة ورجولة وله حقيقة أكبر من ظاهره وسأدخر شكري للوزير الخير والمستشار الحاسم ولأستاذنا « شفيق غربال » الوكيل الفاضل الذي ناصر قضيتي وهي في وهدة الظلم وأيدها بكلمته وهي في مطلع العدالة ... سأدخر شكري لهؤلاء ... ولأساتذتي وأصدقائي الذين ذكروني بالعطف وتعهدوني بالمودة ياساً ، وبالمعونة والتهنئة آملاً ، سأدخر شكري لأولئك وهؤلاء حتى يعبر عنه ما سأبذل من واجب يشرف الاستعداد المصري في آفاق الغربة والمعرفة وما سوف أقدمه من جهد وتضحية في قضية أبناء الظلام بعد رجعتي إلى الوطن المحرر الحبيب . والحبيب بهما نزفنا على أرضه من دماء وبهما تركنا عليها من شوق وأشلاء ... وليتقبل عميد الرسالة وأسرتها تحيتي ووداعي » .

« العلائي »

ما زال مرتجفَ الأحلام هيمانا ... حتى تساقط آمالا وأحزانا

وقلبُ الشوكَ في أغصانه يقظاً ... ومدَّ أنفاسه للزهر وسنانا

وعانق الليل حتى اسود خاطره ... ولم يجد لبياض الصبح وجدانا

وكم تمنّى ولما جاء مورده ... ألفى الضمير بذات الماء غصانا

وكم تشكى ولما سد غايته ... ألفى مذاهبها ظلا وريحانا

يا مهد أحلامه ، ما كان مقدمه ... إلا وداعاً ، فألفى غير ما كانا !

وافاك يصنع من أشلائه أملا ... قبل الرحيل فذاق اليأس ألوانا

وافاك يدفن في أرض الصبا شجناً ... فواجهته بملء الأرض أشجانا

يا مهد أحلامه . وافاك منفردٌ ... سوق الأجادب حتى عاد ظمآنا

ألقى الصلاة على الأقداس فاختنقت

بها المعابد أوثاناً ورهبـــانا !!

تذكر الشاعر الوسنان وارتجفت ... ذات المشاعر ألوانا وأنغاما

يا مهد أحلامه ، ولّى وأتعبني ... ليل الشباب . وضاع العمر أوهاما

يا ليت ليلك إذ خابت مشارقه

أمست عليه صروف الدهر أحلاما !

نزلت أرضك أوجاعاً مضمدة ... فانساب أخطرها حساً وإلهاما !

رفّت ببابك أفراح الصبا قطعاً ... من الظلام ورف الشوق آلاما !

على ديارك ذكرى كلما ارتجفت ... تسلقط الأمس في واديك أياما !

والفجر مازال مسوداً يباكرني ... كالهم ناصية والموت أنساما !

لا ألمح الشمس في واديه مشرقة ... ولا الصباح على الآفاق بسّاما

ولي الشباب وما زالت مصائبه ... على ربوعك أشلاء وأسقاما

مضى الزمان بما أشجى وما برحت

سود الليالي على ناديك أعلاما !!

يامهد أحلامه . لاشيء في خلدي ... إلا وذكرني في الأمس أشياء

تلك الروائح والأشلاء من أمد ... كانت بأرضك آلاماً وأهواء !

نزلت أرضك بالآمال فانقلبت ... على ربوعك يوم اليأس أرزاء !

نزلت أرضك بالآمال فانتثرت ... على الضفائن والأفواه أشلاء !!

وساورتني على مغناك أخيلة ... وبعثرتني على الآفاق أخطاء !!

وطالعتني من الأيام أوجهها ... حتى شربت تراب اليأس صهباء !

وللنوائب كأسٌ بات شاربها ... يقلب النفس تبريراً وإرجاء !

والهم ينسج أحداثاً لينقضها ... ويفتن العقل تثبيطاً وإغراء !

ويجعل الصدق في أفواهه كذباً ... واليمن مشأمة والعزم إعياء !!

والهم يجعل من ذات الرؤى حدثاً

ويملأ الصمت في الأسماع أنباء !

يا مهد أحلامه ، ماذا تملكني؟ وخالط النفس أجواء وأعماقا
أمست وأضحت كأن الأرض ما عرفت
يأساً ولا نظرت من قبل إخفاقا !
ماذا دهاها ؟ فصبت أمسها كسفاً
وأزهقت يومها في الأمس إزهاقا ! !
ليس الجديد قليلا في مداركها.. حتى تجدد للأحزان آفاقا !
وليس حاضرها خلواً فتملأه ولا الضمير إلى ما كان مشتاقا !
هي الليالي وألوان الشجى رحم والعرق يجمع في الآلام أعراقا
واليأس أوجعُه ما ناء حامله وكان لولا جراح فيه سباقا !
والليل أفجعُه ما نام ساهره وقام لا يرتجي للنور إشراقا ! !
والنفس أبعد أشواطاً إذا عدمت شوقاً فهاج على مثواه أشواقا !
والنفس أبلغ من أعماقها ألماً إذا أطالت على المأساة إطراقا !

— —

يا مهد أحلامه. طافت على خلدي مواجع الأمس أرواحاً وأجساداً
كم جئت أرضك بالآمال هامدة وبالوسائل أشباهاً وأضدادا
عجبت للدوحة السوداء ما برحت كأن فيها على الأيام أحقادا ! !
الأصل في أرضه ما زال منشعباً والفرع في أصله ما زال ميادا !
يا دوحة في ضمير الليل ما شهدت شمساً ولا نظرت للدهر أعيادا !
بات الفناء على واديك حشرجة والظل أصبح في ساقيّ أصفادا !
سرب المكاره ما زالت عصائبه على غصونك أزواجاً وأفرادا !
طوبى لروضك ما زالت حمائمه أشهى وأوجع مما كان إنشادا !
طوبى لنسمتك السوداء ما تركت
على الذاهب لا ماء ولا زادا ! !
أحقاد خطبك لا طابت منابتها أمست على نسب الأحزان أجدادا

———

يا مهد أحلامه، فاحت على خلدي ريح الليالي تباريحاً وأوصابا !
أبى وفاؤك إلا أن تنسق لي سود الأزاهر في لقياك ترحابا !
ما كاد يشرح آلام النوى جسدي
حتى صببت لذات النفس أكوابا !
هاج المساء وهاج الصبح ما شرقت
به ديارك أنفاساً وأعتابا ! !
عطر النوائب في مغناك أبهجني ومد للنسمة السوداء أسبابا ! !
وخايلتني على مغناك أزمنة فيها مواجعها أهلا وأحبابا ! !
والتف بالنفس ماضيها وقلبني على المضاجع محزوناً ومرتابا
ما ذا بأرضك أعرى النفس فارتجفت
على منـــابتها دوحاً وأعشابا
ماذا بأرضك باداها ودكرها ؟ وفتح الواقع المشئوم أبوابا !
كأن بين حطوب الأرض قاطبة وبين حطبك أرحاماً وأنسابا !

يا مهد أحلامه . باداك مرتمد يغشى المعالم أجداثاً وأهوالا
وطاف بالأمس لا يلوي على طلل إلا وكشف أطلالا وأطلالا !
وطاف بالأمس حتى جن رائده وخاض ما فيه أشلاءً وأوحالا !
وخاض في لجة الأيام وانتعصت
موتى الأماني في الأكفان أجيالا !
قامت تجر خطاياها ، ومن أمد كانت تجر وراء الضعف أثقالا !
كانت تجدد أوجاعي وتحملني أخشى المغايب أسحاراً وآصالا !
كانت على النفس أرواحاً مدللة
فأصبحت في مهاوي الأمس أغوالا !
موتى الأماني لا أنسى تعثرها بين المخاوف إدباراً وإقبالا
حملتها اليوم آلاماً على كبدي وكنت أحملها بالأمس آمالا ! !
وكنت أجملها للنفس أجنحة فأصبحت في حنايا الصدر أغلالا

———

يا مهد أحلامه . وافاك منقلب يشكو المذاهب أشواكاً وأزهارا
رأى الأصائل فارتابت مشاعره فيما يراه تباشيراً وأسحارا !
ألقى عصاه على يومين فانتكست به الأماني في مغناك أشمارا ! !
ما كاد يعزف بلواه على وتر حتى أهاج أنين اللحن أوتارا !
ولا تعمق في شط المنى خبراً إلا وذكّره في اليم أخبارا !
ولا تأمل غصناً في بشاشته إلا تخوفه ظلا وأثمارا ! !
ولا أزاح ستار الغيب عن ظلم إلا وأسدل خوف النور أستارا !
ظن الظنون وذاق الناس واختنقت
منه الخواطر أثراراً وأخيـــارا
ما كان أكبره نفساً وأطهره لو أن في البر أو في البحر أطهارا !
رأى القلوب عبيداً فانطوى ألماً وغاظه أن يرى الأفواه أحرارا !

———

يا مهد أحلامه . ناداك مرتحل صب الضمير على مغناك أسقاما !
ما بال دارك يا ابن الليل حافلة ؟ لم ترع شوقا ولم تستبق آلاما !

مابال روضك لاتصفو مشاربه؟ ولا يطيب على الآفاق أنساما
تزات أرضك والآمال فى غدها
فانساب رائدها فى الأمس أوهاما !
وارتد هامدها فى الوهم أخيلة والتف ذابلها بالنفس أنقاما !!
ومن توارى من الأيام مشأمة خال التراجع بالأشلاء إقداما !
وبات يزف أوهاماً ويسكبها ويستمد من التصميم إحجاما !
وراح بالنفس لا يدرى لها أفقاً وعاد يملؤها ظناً وأحلاما !
وراح يطلب للتبرير مستمعاً وعاد يمسخ ذات اليأس أحكاماً !
وراح يسخر بالآمال تعمية وعاد ينظر للاخفاق بساما !

يا مهد أحلامه ما كان من ألم ولى وأورثنى فى النفس أشياء
والقلب أوسع للضراء تذكرة إذا تنسم فى الآفاق سراء !
والروح يذكر عند الظل حرقته كما يهيج رحيل الداء أدواء !
والهم أثقل خطواً قبل مخرجه
والنفس أكثر بعد الشوط إعياء !
والليل يلمس أنباباً فيتركها لا تستطيب لذات الفجر أنباء
واليأس إن لمس الأعماق فادحه رد البشائر فى الأسماع أرزاء !
واليأس يطمس فى اليؤوس حكمته
حتى يظن طنين الهم آراء
واليأس ينسج أشلاء التى عقداً وعلأ الأرض لليؤوس أعداء
واليأس ينفخ أوهام الفتى ورماً ويخلع القلب تخييلا وإيحاء
ويخنق النفس تبريراً وتغطية
ويقلب الكون فى الأذهان أخطاء !

يا مهد أحلامه . ناداك مرتحل أفنى الوساوس أجواء وأعماقا
مد الفؤاد إلى الآمال مختنقاً وكان فى سكرات اليأس خفاقا
وأغمض الشوق عن أقذائه ورعا وكان فى حمأة الأرجاس مشتاقا !
وأفرغ الكأس لما جاء واقعها وكان يشربها فى الوهم ترياقا !
من خالط الدهر لا يروى له خبراً ...
ولا يصدق للآفاق إشراقا
ومن تعود شُحّ الجدب آمله رأى الهشيم بذات الخصب إغداقا
ومن توغل فى الإخفاق خاطره خال النجاح على الأهداف إخفاقا
ومن تمرض بالأشواق خافقه ألف الحفيظة فى الأفواه أشواقا !
ومن تذوق للاغراق منقلباً ظن التبسم للأيام إغراقا !
ومن تجرع صاب الوهم فى أفق خاف الحقيقة آفاقاً وآفاقا

يا مهد أحلامه . ناداك مرتحل أبلى حوادثها فقداً وإيجادا !!
ولم يزل فى شعاب الأمس يذكرها
إن مس نازلة أو مس أعيادا !
يا بؤس دارك ما زالت نوائبها سوداً وأسودها ما زال وقادا !
لم يعل محنتها شيب وقد نظرت على اللاعب أبناء وأحفادا !
يا بؤس دارك لا يصفو لها خبر وإن صفا لم يجد للصفو أكبادا
تسد مسمعها إن كان عارضها غيثاً وتفتحه إن كان إرعادا !
يا ويح دارك قد فاحت سريرتها وأزبد الألم المكبوت إزبادا
وجسم الأمل المحموم سامرها وماج منقلب الأيام أشهادا
واهتز فى دوحة الأشواك قارعها حتى اشرأب دفين الأصل ميادا
وأخرج الأمس ألفافاً وأحكمه على المشاعر والأهواء أصفادا !

يا مهد أحلامه . ناداك مرتحل أفنى الخواطر إنكاراً وإعجابا !
طالت مذاهبه وارتاب رائدها وأطنب الدهر فى نجواه إطنابا
واشتف أعماقه حتى تشربها فما أطاق لها شهداً ولا صابا !
واستل أنفاسه صبراً وتضحية وامتص خاطره بعداً وإغرابا !
وضاع فى صخب الأقدار هامسه وانشق مرهفه عتباً وإعتابا
وراح فى غسق الأهواء مقتنصاً وعاد فى وضح الأقداس مرتابا
جنى المصائب آمالا وأحرقها على المذاهب توديعاً وترحابا !
وأذهل الشوق عن أبواب واقعه وهام يطلب خلف الغيب أبوابا
ومال بالنفس عما لاح شاطئه ومد للشاطىء المجهول أسبابا
وأزهق العمر تفكيراً وتجربة وما تخير من دنياه محرابا !!

يا مهد أحلامه . وافى وطالعنى يوم الرحيل وهاج الشوق أهوالا
الحق أزهق أغراضاً ومزقها على المذاهب والأهواء أمثالا !
والخير أخمد أهواء وأركسها تحت المذلة أردانا وأوحالا !!
والحق كالدهر إن أملى لباطلة وفى وأوغل فى التشهير إبطالا
والخير أرزن مأساة فإن عصفت رد الجبائل فى الأشرار أغلالا
والنوم أبلغ للأقدار تذكرة والصمت أبعد فى الآفاق إرسالا
ومن تراءى على الأحداث مرتصدا ذاق المنى فشلا واليأس آمالا !